العجوزان

- ١ -

قال محدِّثي : التقى هذان الشَّيخان بعد فراق أربعين سنةً ، وكانت مَثابتهما[١] ذلك المكانَ القائمَ على شاطئ البحر في إسكندرية في جهة كذا ، وهما صديقان كانا في صدر أيَّامهما ـ حين كانت لهما أيَّام . . . ـ رَجُلَي حكومةٍ يعملان في ديوانٍ واحدٍ ، وكانا في عيشهما أخوَيْ جدٍّ وهزلٍ ، وفضائل ورذائل ، يجتمعان دائماً اجتماع السُّؤال والجواب ، فلا تنقطع وسيلةُ أحدهما من الآخر ، وكأنَّ بينهما في الحياة قرابة الابتسامة من الابتسامة ، والدَّمعة من الدَّمعة .

ولبثا كذلك ما شاء الله ، ثُمَّ تبدَّدا ، وأخذتهما الآفاق كدأب « الموظَّفين » : ينتظمون وينتثرون ، ولا يزال أحدهما ترفعه أرضٌ ، وتخفِضه أخرى ، وكأنَّ « الموظَّف » من تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان : ٣٤] .

وافترق الصَّديقان على مضضٍ ، وكثيراً ما يكون أمر الحكومة بنقل بعض « موظَّفيها » هو أمرها بتمزيق بعضهم من بعضٍ ، ثمَّ تصرفت بهما الدُّنيا ، فذهبا على طرفي طريقٍ لا يلتقيان ، وأصبح كلاهما من الآخر كيومه الذي مضى : يُحفظ ، ولا يُرى .

* * *

قال المحدِّث : وكنت مع الأستاذ (م) ، وهو رجل في السَّبعين من عمره ، غير أنَّه يقول عن نفسه : إنَّه شابٌّ لم يبلغ من العمر إلا سبعين سنةً . . . ويزعم : أنَّ في جسمه النَّاموسَ الأخضر ؛ الَّذي يحيي الشَّجرة حياةً واحدةً إلى الآخر .

رجلٌ فارهٌ ، متأنِّقٌ ، فاخر البزَّة ، جميلُ السَّمت ، فارعُ الشَّطاط[٢] كالمصبوب في قالبٍ لا عوجَ فيه ، ولا انحناء ، مجتمعٌ كلُّه ، لم يذهب منه شيءٌ ، قد حفظته

---

(١) أي : المكان الذي اجتمعا فيه بعد التفرُّق . (ع) .

(٢) ممتدُّ الطُّول . (ع) .

أساليب القوَّة الَّتي يعانيها في رياضته اليوميَّة ، وهو منذ كان في آنِفتِه ، وشبابه لا يمشي إلا مستأخِر الصَّدر[١] ، مشدود الظَّهر ، مرتفع العنق ، مسنداً قفاه إلى طوقه ، وبذلك شَبَّ ، وشاب على استواءٍ واحدٍ ، وكلَّما سئل عن سرِّ قامته ، وعوده ؛ لم يزد على قوله : إنَّ هذا من عمل إسناد القفا[٢] .

وهو دائماً عَطِرٌ عَبِقٌ[٣] ، ثمَّ لا يمسُّ إلا عِطراً واحداً لا يغيِّره ، يرى أن هذا الطِّيب يحفظ خيال الصِّبا ، وأنَّه يُبقي للأيَّام رائحتها .

وله فلسفةٌ من حسِّه لا من عقله ، ولفلسفته قواعد ، وأصولٌ ثابتةٌ لا تتغيَّر ، ومن بعض قواعدها الزَّهر ، ومن بعضها الموسيقا ، ومن بعضها الصَّلاة أيضاً ، وكلُّ ذلك هي عنده قواعد لحفظ الشَّباب . ومن فلسفته : أنَّ مبادىء الشَّباب ، وعاداته إذا هي لم تتغيَّر ؛ اتَّصل الشَّباب فيها ، واطَّرد في الرُّوح ، فيكون ذلك قوَّةً تحرس قوَّةَ اللَّحم ، والدَّم ، وتمسك على الجسم حالته النَّفسيَّة الأولى .

وهو يريد في حكمة الصَّلاة فكرةً رياضيَّةً ، عمليَّةً ، لم ينتبه إليها أحدٌ : هي رياطة البطن ، والأمعاء بالرُّكوع ، والسُّجود ، والقيام ؛ ويقول : إنَّ ثروة الصَّلاة تكنزُ في صندوقين ؛ أحدهما الرُّوح لما بعد الموت ، والآخر البطن لما قبل الموت ؛ ويروي : أنَّ الإسلام لم يفرض صلاة الصُّبح قبل الشَّمس إلا ليجعل الفجر ينصبُّ في الرُّوح .

* * *

قال المحدِّث : وبينما نحن جالسان مرَّ بنا شيخٌ أعجف[٤] ، مهزولٌ ، موهونٌ في جسمه ، يَدْلف[٥] متقاصِرَ الخطْو ، كأنَّ حِمْلَ السِّنين على ظهره ، مُرْعشٌ من الكِبَر ، مستقدِمُ الصَّدر ، منحنٍ يتوكَّأُ على عصاً ، ويدلُّ انحناؤه على أنَّ عمره قد

---

(١) يقال مستقدم الصَّدر : للهرم المحنيّ الظَّهر ؛ فأخذنا منها مستأخر الصَّدر ، وذلك بروزه حين يكون مشدوداً ، فيكون أعلاه إلى الوراء . (ع) .

(٢) هذه حقيقةٌ رياضيَّةٌ ، ولها أقوى الأثر في شدِّ الجسم ، وانتصاب القامة إذا اعتادها الإنسان . . . والمراد بالطَّوق : البَنيقةُ (الياقة) . (ع) .

(٣) « عبق » : هو الذي تفوح منه رائحةُ الطِّيب .

(٤) « أعجف » : مهزول .

(٥) « يدلف » : يمشي مقارب الخطو .

اعوجَّ أيضاً ، وهو يبدو في ضعْفه ، وهُزاله كأنَّ ثيابه ملئت عظاماً ، لا إنساناً ، وكأنَّها ما خِيطتْ إلا لتمسِك عظماً على عظمٍ .

قال : فحملق إليه (م) ثمَّ صاح : رينا ! رينا ! فالتفت العجوز ، وما كاد يأخذنا بَصَرُه حتَّى انفتل إلينا ، وأقبل ضاحكاً يقول : أوَّه ! ريت ! ريت !

ونهض (م) فاحتضنه ، وتلازما طويلاً ، وجعل رأساهما يدوران ويتطوَّحان[1] ، وكلاهما يقبِّل صاحبَهُ قُبَلاً ظامئةً لا عهد لي بمثلها في صديقين ، حتَّى لخيِّل إليَّ أنَّهما لا يتعانقان ، ولا يتلاثمان ، ولكن بينهما فكرةٌ يعتنقانها ويُقَبِّلانها معاً .

وقلت : ما هذا أيُّها العجوزان ؟ !

فضحك (م) وقال : هذا صديقي القديم (ن) ، تركته منذ أربعين سنة معجزةً من معجزات الشَّباب ، فها هو ذا معجزةٌ أخرى من معجزات الهرم ولم يبقَ منه كاملاً إلا اسمُه .

ثُمَّ التفت إليه ، وقال : كيف أنت يا رِينا ؟ !

قال العجوز (ن) : لقد أصبحت كما ترى : زاد العمر في رِجليَّ رجلاً من هذه العصا ، ورجع مصدرُ الحياة فيَّ مصدراً للآلام ، والأوجاع ، ودخلت في طبيعتي عادةٌ رابعةٌ من تعاطي الدَّواء .

فضحك (م) وقال : قبَّح الله هذه الدَّخيلة ، فما هي العادات الثلاث الأصلية ؟

قال العجوز : هي الأكل ، والشُّربُ ، والنَّوم . . . ثمَّ أنت يا رِيت ! كيف تقرأ الصُّحف الآن ؟ .

قال (م) : أقرؤها كما يقرؤها النَّاس ، فما سؤالُك عن هذا ؟ وهل تقرأ الصُّحف يوماً غير ما تقرأ في يومٍ ؟ .

قال : آه ! إنَّ أوَّل شيءٍ أقرأ في الصُّحف أخبارُ الوَفيَّات ؛ لأرى بقايا الدُّنيا ، ثمَّ (إعلانات الأدوية) . . ولكن كيف أنت يا ريت ؟ إنِّي لأراك ما تزال من وراء أربعين سنةً في ذلك العيش الرَّخِيِّ ، وأراكَ تحمل شيخوختك بقوَّةٍ ، كأنَّ الدَّهر

---

(١) « يتطوحان » : يتمايلان .

لم يَخْرِمْكَ[١] من هنا ، ولا من هنا ، وكأنَّه يلمسك بأصابعه ، لا بمساميره ، فهل أصبت معجزةً من معجزات العلم الحديث ؟ .

قال : نعم .

قال : ناشدتك الله : أفي معجزات العلم الحديث معجزةٌ لِعظمي ؟ .

قال (م) : ويحك يا رينا ! إنَّك على العهد ، لم تبرح كما كنتَ مزبلة أفكارٍ . . . ماذا يصنع فيك العلم ، وأنت كما أرى بمنزلةٍ بين العظم ، والخشب ؟

* * *

قال المحدِّث : وضحكنا جميعاً ، ثمَّ قلت للأستاذ (م) : ولكن ما (رينا وريت) ؟ وما هذه اللُّغة ؟ وفي أيِّ معجمٍ تفسيرُها ؟

قال : فتَغامَزَ الشَّيخان ، ثُمَّ قال (م) : يا بنيَّ ، هذه لغةٌ ماتت معانيها ، وبقيت ألفاظها ، فهي كتلك الألفاظ الأثريَّة الباقية من الجاهلية الأولى .

قلت : ولكنَّ الجاهليَّة الأولى لم تنقض إلا فيكما . . . ولا يزال كلُّ شابٍّ في هذه الجاهليَّة الأولى ، وما أحسب (رينا ، وريت) في لُغتكما القديمة إلا بمعنى (سوسو ، وزوزو) في اللُّغة الحديثة ؟

فقال (م): اسمع يا بنيَّ: إنَّ رجل سنة ١٩٣٥[٢] متى سأل فيَّ رجل سنة ١٨٩٥ : ما معنى رينا ، وريت ؟ فردَّ عليه : إنَّ (رينا) معناها : (كاترينا) ؛ وكان (ن) بها صبّاً مغرماً ، وكان مُقتتَلاً ، قتله حبُّها ، أمَّا (ريت) فهو لا يعرف معناها .

فامتعض العجوز (ن) وقال : سبحان الله ، اسمع يا بنيَّ : إنَّ رجل سنة ١٨٩٥ فيَّ يقول لك : إنَّ (ريت) معناها (مرغريت) ، وكانت الجوى[٣] الباطنَ ، وكانت اللَّوعة ، والحريق الَّذي لا ينطفئ في قلب الأستاذ (م) .

قلتُ : فأنتما أيُّها العجوزان من عشَّاق سنة ١٨٩٥ فكيف تريان الحبَّ الآن ؟

قال العجوز (ن): يا بنيَّ، إنَّ أواخر العمر كالمنفى . . . ونحن نتكلَّم بالألفاظ الَّتي تتكلَّم بها أنت ، وأنتما ، وأنتم . . . غير أنَّ المعاني تختلف اختلافاً بعيداً .

---

(١) « يخرمك » : خرمَ الشَّيءَ : ثقبه ، أو شَقَّه ، أو قَطَعَهُ .

(٢) كانت هذه القضيَّة في صيف سنة (١٩٣٥) في إسكندرية . (ع) .

(٣) « الجوى » : الحرقة ، وشدَّة الوَجْد من عشق ، أو حُزْن . وكلُّ داءٍ في الجوف .

قلتُ : واضربْ لهم مثلاً .

قال : واضرب لهم مثلاً كلمة (الأكل) ، فلها عندنا ثلاثة معانٍ : الأكل ، وسوء الهضم ، ووجع المعدة ، وكلمة (المشي) فلها أيضاً ثلاثة معانٍ : المشيُ ، والتعب ، وغمزات العظم . . . وكلمة (النَّسيم) ، النَّسيم العليل يا بنيَّ : زيد لنا في معناها : تحرُّك (الرُّوماتيزم) . . .

فضحك (م) وقال : يا « شيخ » . . .

قال العجوز : وتلك الزِّيادة يا بنيَّ لا تجيء إلا من نقصٍ ؛ فهنا بقيَّةٌ من يدَيْن ، وبقيَّةٌ من رجلَيْن ، وبقيَّةٌ من بطنٍ ، وبقيَّةٌ من ، ومن ، ومن ، ومجموع كل ذلك بقيَّة من إنسانٍ .

قال الأستاذ (م) : والبقيَّة في حياتك .

قال (ن) : وبالجملة يا بنيَّ فإنَّ حركة الحياة في الرَّجل الهرم تكون حول ذاتها ، لا حول الأشياء ، وما أعجب أن تكون أقصر حركتَي الأرض حول نفسها كذلك ، وإذا قال الشَّابُّ في مغامرته : ليمضِ الزَّمن ، ولتتصرَّم الأيَّام ! فإنَّ الأيَّام هي الَّتي تنصرم ، والزَّمن هو الَّذي يمرُّ ، أمَّا الشُّيوخ فلن يتمنَّوْه أبداً ، فمن قال منهم : ليمضِ الزَّمن ، فكأنَّما قال : فلأمضِ أنا .

فصاح (م) : يا شيخ . . ! يا شيخ . . !

ثمَّ قال العجوز : واعلم يا بنيَّ : أنَّ العلم نفسه يهرم مع الرَّجل الهرم ، فيصبح مثله ضعيفاً ، لا غَناء عنده ، ولا حيلة له ، وكلُّ مصانع لنكشير ، ومصانع بنك مصر ، واليابان ، والأمريكيين ، وما بقي من مصانع الدُّنيا لا فائدة من جميعها ، فهي عاجزةٌ أن تكسوَ عظامي .

* * *

قال المحدِّث : فقهقه الأستاذ (م) وقال : كدت والله أتخشَّب من هذا الكلام ، وكادت معاني العظم تخرج من عظامي ، لقد كان المتوحِّشون حكماء في أمر شيوخهم ، فإذا علت السِّنُّ بجماعةٍ منهم لم يتركوهم أحياءً إلا بامتحانٍ ، فهم يجمعونهم ويلجئونهم إلى شجرةٍ غضَّةٍ ليِّنة المهزَّة ، فيُكرهونهم أن يصعدوا فيها ، ثمَّ يتدلَّوْا منها ، وقد عَلقت أيديهم بأغصانها ، فإذا صاروا على هذه الهيئة اجتمع

الأشدَّاء من فتيان القبيلة فيأخذون بجذع الشَّجرة يزجُّونها[1] ، وينفضونها ساعةً من نهارٍ ، فمن ضعفت يداه من أولئك الشُّيوخ ، أو كلَّت حوامل ذراعيه ، فأفلت الغصنَ الذي يتعلَّق به ، فوقع ؛ أخذوه ، فأكلوه ، ومن استمسك ؛ أنزلوه ، فأمهلوه إلى حينٍ .

فاقشعرَّ العجوز (ن) وقال : أعوذ بالله ! هذه شجرةٌ تخرج في أصل الجحيم ، ولعنها الله من حكمةٍ ! فإنَّما يطبخونهم في الشَّجرة قبل الأكل ، أو هم يجعلونهم كذلك ليتوهموهم طيوراً ، فيكون لحمهم أطيب وألذَّ ، ويتساقطون عليهم من الشَّجرة حمائم ، وعصافير .

قال (م) : إن كان في الوحشيَّة منطقٌ ؛ فليس في هذا المنطق « بابُ : لِمَ ؟ » ، ولا « باب : كيف ؟ » ولو كان بهم أن يأكلوهم ؛ لأكلوهم ، غير أنَّها تربية الطَّبيعة لأهل الطَّبيعة ، فإنَّ رؤية الرَّجل هذه الشَّجرة وهزَّها ، وعاقبتها يُبعد عنه الضَّعف ، والتَّخلخُل ، ويدفعه إلى معاناة القوَّة ؛ ويزيد نفسه انتشاراً على الحياة ، وطمعاً فيها ، وتنشُّطاً لأسبابها ، فيكون ساعِدُه آخر شيءٍ يهزم ، ولا يزال في الحِدَّة ، والنَّشاط ، والوثبان ، فلا يعجِز قبل يومه الطَّبيعي ، ويكون المتوحِّشون بهذا قد احتالوا على الطَّبيعة البشريَّة ، فاضطروها إلى مجهودها ، وأكرهوها على أن تبذل من القوَّة آخر ما يسع الجسم .

قال (ن) : فنعم إذاً ، ولعن الله معاني الضَّعف ! كذبٌ والله ! أظنُّ أنِّي لم أكن يوماً شابّاً ، وما أراك إلا متوحِّشاً تخاف أن تؤكل ، فتظلّ شيخاً رجلاً ، لا شيخاً طفلاً ، وترى العمر كما يرى البخيل ذهبه ، مهما يبلغ ؛ فكثرته غير كثيرةٍ .

* * *

قال المحدِّث : وأضجرني حوارهما ؛ إذ لم يعدْ فيه إلا أنَّ جسم هذا يردُّ على جسم هذا ، وإنَّما الشَّيخ من أمثال هؤلاء زمانٌ يتكلَّم ، ويقصُّ ، ويعظ ، وينتقد ، ولن يكون الشَّيخ معك في حقيقةٍ ، إن لم ترحل أنت فيه إلى دنيا قديمةٍ . فقلت لهما : أيُّها العجوزان ! أريد أن أسافر إلى سنة ١٨٩٥ .

* * *

(١) « يزجُّونها » : يدفعونها .